

"النقد الحضاري للاستشراق عند مالك بن نبي"

إعداد الباحث:

صلاح الدين قادري

مجال البحث: العلوم الإنسانية والاجتماعية.

الجامعة: المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس.

ملخص البحث باللغة العربية:

تناولت هذه الدراسة المنظور النقدي للاستشراق لدى مالك بن نبي، كما عالجت الخلفية المعرفية والحضارية لهذا المنظور.

عالجت هذه الدراسة مجموعة من الأسئلة أهمها، طبيعة الاستشراق وأهدافه عند مالك بن نبي، وكذا أصناف المستشرقين، طبيعة العلاقة بين مالك بن نبي والظاهرة الاستعمارية، وكيف أثرت هذه العلاقة على موقفه من الظاهرة الاستشراقية، موقف مالك بن نبي من الاستشراق والمستشرقين.

الكلمات المفتاحية: النقد، الاستشراق، مالك بن نبي، الحضارة، الغرب.

ملخص اللغة الإنجليزية:

This study dealt with the critical perspective of Orientalism of Malik Bennabi, and the cognitive and cultural background of this perspective.

This study answers a set of questions : the nature of orientalism and its objectives according to Malik bin Nabi, as well as the types of orientalists, the nature of the relationship between Malik bin Nabi and the colonial phenomenon, and how this relationship affected his position towards the orientalist phenomenon, Malik bin Nabi's position towards orientalism and orientalists.

Keywords : Criticism, Orientalism, Malik Bennabi, Civilization, the West.

مقدمة البحث:

حينما نتكلم عن العلاقة بين الغرب والشرق، بشكل عام، والاستشراق بشكل خاص، يشير الباحثون، في معظم الأحيان، إلى المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد، وكتابه "الاستشراق"، باعتباره سعيد أول مفكر عربي أسس لنقد الاستشراق، وباعتبار كتابه السفر التأسيسي لنقد الاستشراق الغربي في الفكر العرب المعاصر.

لا شك أن المشروع النقدي للاستشراق لدى إدوارد سعيد، وكتابه الاستشراق، مثلاً لحظة معرفية فارقة في العلاقة الفكرية والثقافية بين الشرق والغرب، خصوصاً الشرق الذي قصده إدوارد سعيد في كتابه، وهو الشرق في وجهه الحضاري، العربي والإسلامي.

لم يقتصر أثر إدوارد سعيد، وكتابه، على نقد الاستشراق الغربي، بل كان له عظيم الأثر في الدراسات النقدية للفكر الغربي، والحضارة الغربية بشكل عام، فلقد مثل سعيد إلى جانب، المفكرين الهنديين: "هومي بابا"، و "جيتاري سبيفاك"، "الثالوث المقدس للنظرية ما بعد الاستعمارية".

لقد سبق إدوارد سعيد في نقده الاستشراق، المفكر العربي المصري "أنور عبد الملك"، في مقالته الشهيرة "الاستشراق في أزمة" (L'orientalisme en crise)، والتي صدرت في المجلة الفرنسية "ديوجان" (Diogene) في عددها الأربع والأربعين الصادر في سنة 1963، وأعيد نشر نفس المقال في مجلة "الجدلية الاجتماعية" الصادرة بباريس سنة 1971¹، لكن نقد أنور عبد الملك للاستشراق لم يتجاوز هذه المقالة.

المفكر العرب الثاني، الذي سبق إدوارد سعيد، في نقده للاستشراق، هو المفكر الجزائري "مالك بن نبي"، وهذا من خلال مؤلفين رئيسيين، هما: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، و "إنتاج المستشرقين وأثرهم في الفكر الإسلامي الحديث"، كما كان نقد الاستشراق مبنوًا في معظم مؤلفاته، ومشروعه الفكري بشكل عام.

بالرغم من الأهمية المعرفية الكبرى للمشروع الفكري لمالك بن نبي، إلا أن نقده للاستشراق لم يأخذ حظه المعرفي اللازم في الفضاء الفكري العربي، والإسلامي، وحتى الفضاء الأكاديمي والجامعي الغربي، لذا ستتناول دراستنا هذه المشروع النقدي للاستشراق لدى مالك بن نبي.

- الإطار النظري :

تدخل هذه الدراسة في إطار "الدراسات ما بعد الاستعمارية"، أو "النظرية ما بعد الاستعمارية"، والتي نشأت في سياقين، فكريين وسياسيين، متداخلين :

- "السياق الأول : تاريخ تفكيك الاستعمار ؛ وثورة المثقفين والنشطاء، الذين حاربوا ضد الحكم الاستعماري، وحلفائه الذين يشاركون الآن في إرثه المستمر، والذين تحدوا ونقحو التعاريف المهيمنة للعرق والثقافة واللغة والطبقة في سبيل جعل أصواتهم مسموعة.

- السياق الثاني : هو الثورة داخل التراث الفكري "الغربية" من خلال التفكير حول بعض المواضيع المتعلقة باللغة وكيف تعبر عن التجربة، كيف تعمل الإيديولوجيات، كيف تتشكل الذات الإنسانية، وماذا يمكننا أن نقصد بالثقافة " ²

والمقصود بالنظرية ما بعد الاستعمارية الحقل المعرفي الذي يعنى " بدراسة جميع الثقافات، والمجتمعات، والبلدان والأمم من حيث علاقات القوة التي تربطها بسواها من الثقافات والمجتمعات والبلدان والأمم؛ أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافات الفاتحة الثقافات المفتوحة لمشيئتها؛ والكيفية التي استجابت بها الثقافات المفتوحة لتلك الهيمنة، أو تكيفت معها، أو قاومتها، أو تغلبت عليها " ³

¹ صدرت ترجمة هذه المقالة إلى العربية في مجلة الفكر العربي اللبنانية في عددها الثاني والثلاثين سنة 1983.

² أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة : محمد عبد الغنى، ص 34

³ دوغلاس روبنسون الترجمة والإمبراطورية، نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، تر: ثائر ديب، المرجع السابق، ص: 28

- مشكلة البحث وأسئلتها وفرضياتها :

الإشكالية الرئيسية التي تجيب عنها هذه الدراسة هي : ما هو موقف مالك بن نبي من الظاهرة الاستشراقية ؟ وما هي الخلفية المعرفية والحضارية التي انطلق منها في نقده للاستشراق ؟

تتفرع عن هذه الإشكالية الرئيسية أسئلة ثانوية، أهمها : ما هي طبيعة الاستشراق، وأهدافه عند مالك بن نبي ؟ وما هي أصناف المستشرقين ؟ ما هي طبيعة العلاقة بين مالك، كمفكر وإنسان، والظاهرة الاستعمارية ؟ وكيف أثرت هذه العلاقة على موقفه المعرفي من الظاهرة الاستشراقية ؟

من أجل الجواب على هذه الإشكالية الرئيسية والأسئلة التي تفرعت عنها، تتبنى هذه الدراسة فرضية أساسية مفادها، لقد كان للسيرة الذاتية لمالك بن نبي، والتي انطبعت بالمواقف العنصرية والظالمة للاستعمار، أثرا واضحا في موقفه من الظاهرة الاستشراقية، وكذا الخلفية المعرفية والحضارية التي انطلق منها في نقده للاستشراق.

- أهمية الدراسة :

1. الاستفادة من المشاريع النقدية للاستشراق في فهم العلاقة الحضارية والثقافية الواجب بناؤها بين الشرق والغرب.
2. فهم التصورات والمنطلقات التي اعتمدها الغرب في بناء مركزية الحضارية والثقافية.
3. الاستفادة من التراث الفكري لأحد أهم المفكرين العرب الذي اهتموا بقضايا الحضارة والنهضة، من أجل بناء نموذج معرفي يسمح بتحقيق نهضة حضارية.

- منهجية البحث :

نظرا لطبيعة الأطروحة والإشكالية البحثية اللتين اخترتهما، كانت المقاربة التي تبنيها مقارنة كيفية، والتي هي المقاربة الأنسب كونها تهدف إلى وصف الظواهر وتحليلها، عن طريق عرض آراء الباحثين في الظاهرة قيد الدراسة، بالإضافة إلى تحليل الظروف المحيطة بها.

انطلاقا من هذه المقاربة الكيفية اخترت المنهج البحثي المناسب، من أجل الجواب على الإشكالية محل الدراسة، وهو "منهج تحليل المضمون"، والذي سمح لي بتتبع الآثار المعرفية للأطروحة محل الدراسة، حيث قمت بحصر المصادر الرئيسية التي تمثل المشروع النقدي للاستشراق لدى مالك بن نبي، ثم قراءة هذه المصادر، قراءة متمعنة ومستقصية، من أجل استجلاء أفكارها الأساسية، ثم حصرها وتبويبها، من أجل استيعاب أهم الأطروحات التي تحملها، وربطها بالإشكاليات الفرعية التي سقتها في هذه الأطروحة.

خطة البحث :

يتألف هذا البحث من مقدمة، وأربعة مباحث وخاتمة.

- 1) المقدمة، والتي ترسم الإطار العام للبحث.
- 2) المبحث الأول : مالك بن نبي، المفكر والإنسان، والظاهرة الاستعمارية.
- 3) المبحث الثاني : الخلفية الفكرية لنقد الاستشراق عند مالك بن نبي.

- 4) المبحث الثالث : طبيعة الاستشراق وأصناف المستشرقين عند مالك بن نبي.
- 5) المبحث الرابع : دوافع الاستشراق وأهدافه عند مالك بن نبي.
- 6) المبحث الخامس : موقف مالك بن نبي من الاستشراق والمستشرقين.
- 7) الخاتمة، وتشمل أهم النتائج التي توصلت إليها، وأهم التوصيات.

المبحث الأول : مالك بن نبي، المفكر والإنسان، والظاهرة الاستعمارية.

لا يمكن فهم تعامل مالك مع المركزية الغربية كظاهرة حضارية أو معرفية، وموقفه من الاستشراق، إلا بالنظر والتأمل في سيرته الذاتية، والوقوف على المحطات والأحداث التي طبعت شخصيته المعرفية، والتي تركت آثارا نفسية كانت محددة في تعامله مع ظاهري الاستعمار والغرب، وكذا الاستشراق كمخرج معرفي ومشروع فكري خادم لهاتين الظاهرتين.

فلقد ولد مالك بن نبي سنة 1905 م في قسنطينة بالجزائر، حيث كانت الجزائر تعيش تحت نير الاستعمار الفرنسي، تلقى تعليما قرآنيا في صغره، وكذا تعليميا نظاميا فرنسيا، هاجر سنة 1925 م لفرنسا من أجل الحصول على عمل لكنه لم يفلح بسبب العنصرية، ليعود إلى الجزائر ليشغل في المحاكم الشرعية، لكنه قرر الاستقالة بسبب المعاملة المهينة التي يتلقاها الجزائريون من طرف كاتب المحكمة الفرنسية وموظفيها.

بعد استقالته، قرر الالتحاق سنة 1930 م بمعهد الدراسات الشرقية بباريس، لكنه فشل بالرغم من تمكنه الكامل من امتحان القبول، لكنه أدرك بأن نجاح طالب جزائري مسلم لا يخضع لمعايير علمية، بل عرقية وعنصرية، خصوصا في مجالات التخصص الديني واللغوي والحضاري في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

توجه مالك بن نبي بعد ذلك، إلى التخصصات التقنية، حيث درس في النهار في معهد اللاسلكي، كما درس الكيمياء التطبيقية في باريس، وتزوج آنذاك بفرنسية اعتنقت الإسلام، ليتخرج مهندسا سنة 1935م.

بعد نجاحه المهني والعائلي، تجددت صدمات مالك بن نبي من العقلية الاستعمارية، والممارسات العنصرية اتجاه الجزائريين والعرب والمسلمين، فبعد أن ترأس مالك بن نبي عام 1938 م إدارة والتعليم والإرشاد في "مركز المؤتمر الجزائري الإسلامي للثقافة" بمرسيليا بفرنسا، والذي أنشأه مهاجرون جزائريون، قامت السلطات الفرنسية بإغلاقه عام 1939 م بدعاوى واهية.

بعد النتائج الكارثية للحرب العالمية الثانية، وآثارها على العاملين العربي والإسلامي، والتي استحلت كل ثروات الأمة العربية والإسلامية، لتعود الأمم الغربية بمختلف أطيافها للتصالح من جديد، والتي ذهب ضحيتها مئات الألوف من المجندين قسريا، من الجزائريين والمغاربة والتونسيين والسنغاليين من أبناء الأمة، وهم يدافعون عن بريطانيا وفرنسا، في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، والتي ختمتها فرنسا بمجازر الثامن من ماي 1945 م، والتي ذهبت ضحيتها 45 ألف جزائري خرجوا مطالبين فرنسا الوفاء بوعودها بالاستقلال.

حين ذاك ترسخت لدى مالك بن نبي قناعة كبرى بأن المعركة مع الاستعمار ومنظومة الهيمنة الغربية هي أكبر وأعمق من تدافع يومي في إطار الجمعيات والمراكز الثقافية والتعليمية، بل هي معركة حضارية تحتاج صياغة مشروع معرفي متكامل بأدوات فكرية فعالة، ترادفها أدوات سياسية واقتصادية وعسكرية، تحمي هوية الفرد المسلم وأوطانه، وتعيد الأمة إلى ساحة التدافع الفكري والحضاري.

انطلاقاً من هذه القناعة، وبدء من سنة 1946 م كرس مالك حياته للكتابة الفكرية والمحاضرات، ليقرر سنة 1956 م اللجوء إلى القاهرة هروبا من مضايقات الإدارة الاستعمارية، حيث تمكن هناك من الأخذ بزمام اللغة العربية، كلغة كتابة ومحاضر، وتحول بيته إلى مزار ثقافي، وتركزت مؤلفاته ومحاضراته على مواضيع النهوض الحضاري، والظاهرة الاستعمارية، وكذا الصراع الفكري والثقافي.

بعد الاستقلال، سنة 1963 م، عاد مالك بن نبي إلى أرض الجزائر ليساهم في نهضة الشعب الجزائري، كجزء من مشروع حضاري كلي للأمة الإسلامية والعربية، حيث شغل منصب مدير في وزارة التعليم العالي، لكنه اصطدامه بمنظومة تعليمية فرانكفونية علمانية في الوزارة حالت دون تنفيذه للمشاريع والأفكار الإصلاحية التي يؤمن بها، ليكتشف أن المعركة الحضارية ليست مع الغربي الآخر فقط، لكنه مع أبناء جلدته كذلك، ممن لا يؤمن بالهوية العربية الإسلامية للشعوب.

اضطر أخيرا مالك بن نبي للاستقالة سنة 1967 م من منصبه في الوزارة، والتفرغ للمحاضرات والتأليف، حتى وافته المنية سنة 1973 م.⁴

المبحث الثاني : الخلفية الفكرية لنقد الاستشراق عند مالك بن نبي.

بالرغم من تخصيص مالك بن نبي⁵ لكتاب صغير الحجم لمعالجة الظاهرة الاستشراقية، وهو كتاب : "إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث"، والذي نشرته دار نشر "مكتبة عمار" بالقاهرة سنة 1970 م، حيث لم يتجاوز عدد صفحاته 26 صفحة، إلا أن نقده للمركزية الأوروبية والظاهرة الاستعمارية، والفكرة الاستشراقية كمخرج ثقافي وفكري لهما، كان حاضرا بشكل واضح وكبير في مؤلفاته التي قاربت العشرين مؤلفا، خصوصا في سلسلته الفكرية التي أعطى لها عنوان : "مشكلة الحضارة".

كما أصدر مالك بن نبي، قبل عشر سنوات من إصدار هذا الكتاب، كتابا آخر كان موضوعه في جوهر الصراع الفكري بين الغرب والشرق، والذي أصدره سنة 1960 م، بعنوان "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، والذي نشرته دار الفكر، بدمشق، سنة 1960 م، وكان عدد صفحاته 127 صفحة.

يقول مالك بن نبي في هذا الكتاب : "إن المشكلة التي تعترضنا ذات وجهين، لأنه يجب علينا أن نفكر كيف نعطي لأفكارنا أقصى ما يمكن من الفعالية ؟ ومن ناحية أخرى، أن نعرف ما الوسائل التي يستخدمها الاستعمار لينقص ما يمكن من فاعلية أفكارنا ؟ وهكذا نصبح، في الواقع، أمام مشكلتين : الأولى، تتضمن كيف ننشئ أفكارا فعالة في مجتمعاتنا؟، والثانية، كيف يجب أن نفهم أسلوب الاستعمار في الصراع الفكري ؟ حتى لا يكون له أي سلطان على أفكارنا".⁶

⁴ مالك بن نبي : مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، دمشق، 1984 م، ص (38، 15، 24، 216، 299)

⁵ مالك بن نبي : مفكر ومصلح جزائري، ولد سنة 1905 بالجزائر، وتوفي بها سنة 1973، من مؤلفاته : الظاهرة القرآنية 1946، شروط النهضة 1958، وجهة العالم الإسلامي 1954، مشكلة الثقافة 1959، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة 1960، مذكرات شاهد للقرن 1965، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي 1969، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1971، المسلم في عالم الاقتصاد 1972. (العويسي، عبد الله بن حمد ، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2012)

⁶ مالك بن نبي : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، 1960 م.

تناول بن نبي في هذا المؤلف أساليب الصراع الفكري الخفية التي يتبناها المستعمر في صناعته لأفكار خادمة لمصالحه، وبثها بطريقة مأكرة في وعي الشعوب المستعمرة، كما يتناول أساليب تحييد المفكر العربي والمسلم من ساحات الصراع الفكري، أو تجنيده من أجل تسهيل السيطرة الاستعمارية على هوية الأمة ومقدراتها، كما يوضح مالك بن نبي في هذا المؤلف استعمال المنظومة الاستعمارية للأساليب العاطفية في ساحة المعركة الفكرية.

يأتي كتاب مالك بن نبي "إنتاج المستشرقين وأثرهم في الفكر الإسلامي الحديث"، كموضوع خاص، وتنتمى في الموضوع العام الذي تناوله، سابقاً، كتابه: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، فالموضوع هنا الصراع الفكري الاستشراقي، "ففي كل نشاط فكري على العموم، والنشاط الفكري المتصل بالإسلام على الخصوص، يقع هذا النشاط مباشرة تحت مجاهر سميتها مرصد الصراع الفكري في العالم، حتى لو سخرت بعض الشخصيات، أو بعض الجهات الإسلامية، لتضييق الخناق على هذا النشاط، وأصحاب الأمر ليسوا في بلادنا، بل خيوطهم، أحياناً، تتسرب من حيث لا ندري إلى عقولنا، بمعنى أننا ننساق وفق خططهم دون أن نشعر" ⁷

وكان، مالك بن نبي، واعياً بالحالة الحضارية والثقافية والنهضوية المتردية للعالم الإسلامي، "فالعالم الإسلامي، اليوم، خليط من بقايا موروثه عن عصر ما بعد الموحدين، ومؤثرات ثقافية حديثة، وهو خليط لم يصدر عن توجيه واع، أو تخطيط علمي، وإنما هو مجموعة رواسب قديمة، لم تصف من طابع القدم، ومستحدثات لم تتم تنقيتها،" ⁸ "فشكل النهضة الإسلامية الراهنة هو خليط من الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب، ومن مواقف التدين أيضاً" ⁹

ومن أجل أن يشرح مقصوده من هذه الكلمة "الصراع الفكري في العالم الإسلامي"، يصرح مالك بن نبي، قائلاً: "وهنا تجب كلمة عن المفهوم الذي نعنيه بـ (الصراع الفكري في العالم الإسلامي)، يجب أن نقرر مبدئياً هذه القاعدة العامة، ألا وهي أنه عندما يطرح مسلم، أو بعض المسلمين مشكلة ما تهتم مجتمعاتهم، فإن هذه المشكلة تكون قد طرحت، أو ستطرح عاجلاً، في أوساط المختصين في هذه الدراسات، لحساب وتحت إشراف الاستعمار" ¹⁰، فإدارة الصراع، وصناعة الأفكار الاستشراقية، وغيرها، يتم في مختبرات المؤسسة الاستعمارية، تسهر عليها فرق من المتخصصين والمفكرين والخبراء.

فكلما حلت مشكلة في العالم الإسلامي، وانبرى لها عالم أو مفكر مسلم لحلها، سارع هؤلاء الخبراء والمتخصصون "لدراسة هذا الحل، فإن كان خاطئاً، زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو أخرى، وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كل جهدهم للتقليل من شأنه، وتخفيض قيمته حتى لا يفيد" ¹¹.

فعملية الصراع الفكري ليست عملية اعتباطية، أو ثانوية، لذا يركز مالك بن نبي على هذه القاعدة العامة بأننا "يجب أن نجعلها نصب أعيننا، أننا كلما طرحنا مشكلة، وعرضنا لها حلاً من الحلول، فإن قادة الصراع الفكري يأتون على الفور، بما يلفت عنه الأبصار، أو ما يزيغه تزييفاً" ¹²

7 مالك بن نبي : مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، 2005، ص 35.

8 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 77 .

9 نفس المصدر : ص 77 .

10 نفس المصدر، ص 14.

11 نفس المصدر، ص 15.

12 نفس المصدر، ص 18.

لا تتوقف، عملية الصراع، ببعديها الفكري والنفسي، والغرض منها أن " يبقى الضمير الإسلامي في دوامة صراعه الباطن، يُسكّنه أحياناً ما يكتبه المادحون، ويثيره أحياناً أخرى ما ينتجه المفندون، مستهلكاً أجدى الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي، من دون أي جدوى، ومن دون أي تأثير حقيقي على تطور العقلية الإسلامية " ¹³ يضع، مالك بن نبي، العنوان الأكبر لقضيته الكبرى، التي ينطوي تحتها عمله في نقد الاستشراق، فالقضية الكبرى، بالنسبة إليه، هي قضية استقلال فكري، في عالم يسوده صراع حضاري، بوسائل فكرية وثقافية، وبأن الهدف الرئيسي للدراسة هو المساهمة في تشييد المجتمع المسلم، على أسس وأفكار أصيلة، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية فإنه "علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي " ¹⁴ " فالمجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة، أو السلطة عليه من الخارج " ¹⁵ المبحث الثالث : طبيعة الاستشراق وأصناف المستشرقين عند مالك بن نبي.

أ- تعريف طبيعة الاستشراق :

يحاول مالك بن نبي تبين طبيعة الظاهرة الاستشرقية من خلال فهم طبيعة الاستشراق كفكر، والمستشرق كمفكر، دون الفصل بينهما، فهو يعني " بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي، وعن الحضارة الإسلامية " ¹⁶

فمن خلال هذا التعريف، الذي أعطاه مالك بن نبي للمستشرقين، يمكننا ان نستشف جزئياً تعريفه للاستشراق، باعتباره كلما كتبه الكتاب والمفكرون الغربيون عن الفكر الاسلامي، والحضارة الإسلامية .

ب- أصناف المستشرقين :

يرى مالك بن نبي بأن أي محاولة لدراسة أقسام الاستشراق وطبقات المستشرقين يجب أن تتبع ترتيباً منطقياً، مبني على معيارين أساسيين :

- من حيث الزمن : طبقة القدماء مثل جريز دورياك والقديس توماس الاكوييني، وطبقة المحدثين مثل كاره دوقو وجولدتسهير.

- من حيث الاتجاه العام اتجاه الإسلام والمسلمين وكتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعته " ¹⁷

يتبع مالك بن نبي معياراً واحداً في اختيار طبقة المستشرقين أو أفكارهم الحرية بالاعتناء في دراسته، هذا المعيار هو مدى تأثيرهم على واقع الأمة الإسلامية وحضارتها اليوم، فلذلك يستثنى المستشرقين القدامى من دراسته، " فهم وإن أثروا، أو ربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي، دون أيما تأثير على أفكارنا، نحن معشر المسلمين، إن ما كتبوا كان قطعاً المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في

13 نفس المصدر، ص 24.

14 مالك بن نبي: انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص 48.

15 نفس المصدر، ص 48.

16 نفس المصدر، ص 5.

17 نفس المرجع : ص 5.

أوروبا، بينما لا نرى لهم أي اثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم. فلنترك قضيتهم جانباً لمن تهمه دراسة التاريخ العام " 18

لم يقيم مالك بن نبي باستثناء المستشرقين القدامى فقط، بل استثنى كذلك المنتقدين باعتبار ضعف أثرهم على الأمة وأبنائها، ففئة المستشرقين " المنتقدين للحضارة الإسلامية من المحدثين، حتى لو كان لهم بعض الأثر في تحريك أعلامنا، أو كان لهم بعض الصيت في زمنهم وبلدانهم مثل الأب لاماتس، أنهم لا يدخلون في موضوع بحثنا لأن إنتاجهم، على فرض أنه مس ثقافتنا إلى حد ما، إلا أنه لم يحرك ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائياً، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي، كما وقع ذلك في العهد الذي نشر فيه طه حسين كتابه " في الشعر الجاهلي " على غرار ما تقتضيه مسلمة قدمها المستشرق مرجليوث قبل سنة من صدور كتاب طه حسين، والذي أثار تلك الزوبعة من السخط التي تخللتها الصواعق المنطلقة من قلم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله وأكرم مثواه " 19

وبالتالي الطبقة الوحيدة الحرة بالاهتمام أكثر، حسب مالك بن نبي، هي طبقة المادحين.

ج - أقسام الاستشراق :

يقسم مالك بن نبي الاستشراق حسب الأهداف التي تغذيه، فهو بذلك ينقسم إلى قسمين، كل قسم جاء في مرحلة تاريخية معينة :

- الاستشراق الثقافي : أراد الغرب من خلاله الاستفادة من المنجزات المعرفية والحضارية للأمة الإسلامية، فلقد " كانت (أوروبا) في مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد طوماس الاكوييني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر " 20

- الاستشراق السياسي والاستعماري : فلقد قامت أوروبا " باكتشاف الفكر الإسلامي مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية، لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها " 21

المبحث الرابع : دوافع الاستشراق وأهدافه عند مالك بن نبي.

يمكننا تقسيم دوافع الاستشراق حسب رؤية مالك بن نبي، إلى دوافع ثلاثة :

أولاً : الدوافع الدينية.

كان للصراع الديني للكنيسة مع الإسلام أثراً كبيراً في الأدبيات الاستشراقية، فلقد كانت إحدى الوسائل للتعرف على الدين الإسلامي، من أجل مواجهته، ومحاولة تنصير منتسبيه، فكان من أهدافهم " التشكيك في صحة القرآن،

18 نفس المصدر : ص 6.

19 نفس المصدر : ص 6 - 7.

20 نفس المصدر : ص 8.

21 نفس المصدر : ص 9.

وإرجاع الإسلام كله إلى مصادر نصرانية ويهودية، حيث قام الآباء اليسوعيون بأبحاث لكي يحددوا التأثير اليهودي المسيحي في الجاهلية، ومن ثم في القرآن الكريم، وفي الإسلام " 22 ، " كما قاموا بالتشكيك كذلك في صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك عن طريق الطعن في ظاهرة الوحي، واعتبارها ذاتية، وما هي إلا إلهام نفسي أو هواجس داخلية تملكت ذات محمد، فقال ما قال، وليس هناك وحي خارجي، وأنها ما هي إلا مظاهر اختلاط وهلوسة " 23

ثانيا : الدوافع العلمية.

" ولقد اعترف المستشرقون المعتدلون بفضل الشعوب الإسلامية، وبمساهمتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني، من خلال مجهودات العلماء المسلمين " 24 كما " اكتشفت أوروبا الفكر الإسلامي في العصور الوسطى، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها، بالطريقة التي أتاحت لها فعلا تلك الخطوات الموفقة، التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر " 25

ثالثا : الدوافع السياسية.

معلقا على هذه الدوافع السياسية، يصرح مالك بن نبي، بأن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي، في العصور الحديثة " من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية، لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها " 26

المبحث الخامس : موقف مالك بن نبي من الاستشراق والمستشرقين.

كانت المقاربة المعرفية لمالك بن نبي في نقده للظاهرة الاستشراقية، كمظهر من مظاهر الصراع، خالية من "البعد الجغرافي الحضاري" بين شمال وجنوب، وشرق وغرب، فهو لم يكن يراها صراعا بين غرب وشرق، أو شمال وجنوب، بل كان يراها أساسا صراعا بين منظومة السيطرة والهيمنة الغربية من جهة، والأمة الإسلامية من جهة أخرى.

كما خلت هاته المقاربة المعرفية كذلك من البعد القومي، فلم يكن ينظر للظاهرة الاستشراقية كمظهر من مظاهر الصراع بين منظومة الهيمنة الغربية والأمة العربية، بل كان يراها فقط صراعا غربيا مع الأمة الإسلامية، وبهذا يبقى مالك بن نبي وفيا لنظريته الكبرى في صناعة الحضارة، والتي ترى أن أهم عامل في دمج مكونات الحضارة الإنسانية الثلاثة، والمتمثلة في "الإنسان" و"التراب" و"الوقت"، هو العامل الديني، فالذي يصنع قوة الحضارة، ويعطي لها فاعليتها هو الدين، ولا يكون الصراع إلا على أهم عامل حضاري.

22 مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 257.

23 نفس المصدر : ص 161.

24 مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين ، ص 9.

25 نفس المصدر : ص 8.

26 نفس المصدر : ص 9.

لم يضمن مالك بن نبي نفسه بتتبع الأدبيات والمؤلفات الاستشراقية، ومحاولة حصرها كمياً، أو تحليلها نوعياً من أجل محاولة تصنيفها مدرسياً؛ بل نظر إليها فقط كإحدى المخرجات المعرفية والثقافية لمنظومة الصراع الحضاري بين الغرب والأمة الإسلامية، وحاول من خلال تحليلها تتبع أدوات الصراع، ونتائجه، وآثاره.

كان الشغل الشاغل لمالك بن نبي هو كشف الغطاء عن خيوط المنظومة الكبرى للهيمنة والسيطرة، والتي يعد الاستشراق إحدى مخرجاتها الثقافية، فمالك بن نبي يربط بين الاستشراق وما دعاه بمخابر الصراع الفكري التي تعدّ في رأيه الشطر العملي السياسي لهذه الظاهرة الثقافية.

الإضافة المعرفية الأهم التي جاء بها مالك بن نبي في نقده للاستشراق هو الخروج من ثنائية الاستشراق المادح والذام، والموضوعي والمغرض، وهذا ما سيؤدي بالطبيعة إلى الدخول في تصنيف المستشرقين بين محبين وأعداء للعرب والمسلمين، والحضارة العربية الإسلامية؛ بل جاءت مقارنته مختلفة إطلاقاً، حيث تركّزت مقارنته على الأثر الحضاري لأي مقارنة استشراقية على الأمة العربية والإسلامية عموماً، أو الأثر النفسي على الفرد العربي والمسلم بشكل خاص.

انطلاقاً من هذا السؤال المعرفي، كانت مقارنة مالك بن نبي في موقفه من الاستشراق واضحة، ومنطلقة من كونه مفكراً عربياً مسلماً، يستند إلى مرجعية الوحي، ويدافع عن الأمة الإسلامية، دينها وهويتها وحضارتها، "فالإنتاج الاستشراقي، بكلا نوعيه، كان شراً على المجتمع الإسلامي، سواء في صورة المديح والاطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر، وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التفنيد والإقلال من شأننا بحيث صيرّرنا حماة الضيم عن مجتمع منهار، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعاً ولكن دون هواده، لا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ، دون أن نسلّم لغيرنا حق الإصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب"²⁷.

يذهب مالك بن نبي إلى أبعد من فكرة نقد الاستشراق المتآمر والحاقد، معتبراً "الاستشراق المادح" أسوأ أثراً من "الاستشراق الذام"، لما له من آثار نفسية تعطل الفاعلية الحضارية للفرد والأمة الإسلامية، لخلقه دعة فكرية، واعتزازاً موهوماً منبثاً عن واقع الفرد والأمة.

يرجع مالك بن نبي قوة تأثير الخطاب الاستشراقي لا لقوة كامنة فيه، لكنه يرجعه للحالة الحضارية التي يمر الفرد المسلم والأمة المسلمة "فيجب الملاحظة أيضاً أن العالم الإسلامي أصبح في ظل هذه الملابس يعانى آثار الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية، فهو يعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركب نقص محسوس من ناحية، ومحاولة التغلب عليه من ناحية أخرى حتى باستعمال وسائل تافهة"²⁸

فالمسلم اليوم، وهو يعيش هزيمة نفسية وحضارية "يبحث عن حقنة اعتزاز للتغلب على المهانة التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتاً إشباع حاجته المرضية"²⁹

²⁷ مالك بن نبي : انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، 1969م، ص 25.

²⁸ مالك بن نبي : القضايا الكبرى ، ص 170.

²⁹ نفس المصدر: ص 11.

من أجل إثبات فرضيته هذه، اتخذ مالك بن نبي مثالا عن إحدى المؤلفات الاستشراقية، وهو كتاب المستشرقة والباحثة الألمانية، "زيغريد هونكه"³⁰ "Sigrid Hunke"، والذي كان عنوانه: "شمس الله تسطع على الغرب" الصادر سنة 1960 م، والذي بيع منه أكثر من مليوني نسخة آنذاك، وترجم لقرابة عشرين لغة، فبالرغم من كيل مؤلفته المديح لانجازات الحضارة العربية الإسلامية، ومساهماتها في تطور الحضارة الإنسانية، إلا أن مالك بن نبي يعتبر هذا المؤلف، ومثيله من المؤلفات الاستشراقية، صاحبة أثر سلبي على الفرد والأمة الإسلامية، بل يربط بين مقاربتها المادحة وحالة الدعة وروح الهزيمة التي اتسمت بها الأمة في الحرب التي انطلقت بين العرب والصهاينة سنوات بعد ذلك، وهي حرب الاستنزاف لسنة 1967.

يذهب مالك بن نبي إلى أبعد من ذلك، معتبرا الاستشراق المعادي والطاعن والثالب أسوأ وأقوى أثرا من الاستشراق المادح، الذي يجعل الفرد والأمة تعيشان في حنايا الماضي، وعلى هامش الصراع الحضاري اليوم، فالاستشراق الطاعن، على الأقل، يمكن له أن يستفز الذات الحضارية الإسلامية على الفعل والاشتباك، ويحث عقول الأمة على الاشتغال والتفكير من أجل صناعة حاضر معرفي وحضاري وثقافي تكون للأمة فيه كلمتها وموقعها.

فالمستشرقون الطاعنون في الإسلام، والمتحاملون عليه معرفيا وحضاريا، "على فرض، أن إنتاجهم، مسّ ثقافتنا إلى حدّ ما، إلا أنه لم يحرك، ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائيا، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي"³¹.

لم يكن موقف مالك بن نبي من الاستشراق موقفا عقديا وإيديولوجيا، ينكر فيه كل إضافة علمية أو حضارية له، بل يصرح بأنه "لا يجوز لنا نكران قيمته العلمية (الاستشراق)، بل نراه أحيانا يستحق كل التقدير، لما يتسم به، إضافة إلى الطابع العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه، كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء"³².

كما لا يخفي مالك بن نبي إعجابه وتقديره للعديد من المستشرقين نظير موضوعيتهم ومساهماتهم المعرفية الخادمة للحضارة العربية والإسلامية، وسلامة منتجهم المعرفي من الأهداف المغرضة، والنقاربات المنحازة معرفيا وحضاريا، حيث كتب "أن المستشرق سيديو والعلامة غوستاف يتسمان في إنتاجهما بميزة العلم الخالص والاجتهاد المخلص للحقيقة العلمية"³³.

لم يكن أكبر هم يعترى أفكار مالك بن نبي هو رفض الاستشراق، فكفر غربي غريب عن الهوية والحضارة العربية والإسلامية، بل كان همه هو الفراغ الفكري الذي أصاب الأمة، والتأثير السلبي للفكر الاستشراقي على المسار الحضاري للأمة بشكل خاص، "فكل فراغ أيديولوجي لا تشغله أفكارنا، ينتظر أفكاراً منافية، ومعادية لنا، فهذه هي القاعدة العامة، والمتخصصون في الصراع الفكري يعرفونها كما يعرفون أبناءهم"³⁴.

³⁰ زيغريد، هونكه: مستشرقة ألمانية معروفة، ولدت سنة 1913، درست الفلسفة وعلم النفس ومقارنة الأديان، تتلمذت على يدي الفيلسوف الألماني الكبير مارتن هايدغر، وحصلت على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة فريبورغ في ألمانيا سنة 1941، توفيت سنة 1999 بألمانيا، من أشهر مؤلفاتها: "شمس الله تسطع على الغرب".

³¹ مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، ص 6.

³² مالك بن نبي: المصدر نفسه، ص 42.

³³ مالك بن نبي: المصدر نفسه، ص 9.

³⁴ مالك بن نبي: المصدر نفسه، ص 45.

الخاتمة :

يمكننا إجمال نتائج البحث في النقاط التالية :

- لقد كان لمالك بن نبي فضل السبق المعرفي في نقده للاستشراق والمركزية الغربية، ولقد سبق بذلك ادوارد سعيد وغيره من المفكرين العرب والمسلمين.
- مثل نقد مالك بن نبي للاستشراق اشتباكا معرفيا حقيقيا مع المنظومة الغربية للهيمنة، واعيا بأن أسس المعركة الحضارية مع الغرب تنطلق أساسا من المعركة الفكرية.
- كانت الدوافع الذاتية والموضوعية لمالك بن نبي في نقده للاستشراق نابعة من إحساسه بالمسؤولية العلمية والحضارية اتجاه قضايا أمته، والدفاع عنها من سطوة الاستعمار السياسي، والهيمنة الفكرية.
- لقد لعبت الممارسات العنصرية التي تعرض لها مالك بن نبي في حياته الخاصة، وكذا الأحداث المريعة التي تعرضت لها الأمة عموما، والأمة الجزائرية بشكل خاص، دورا كبيرا في بلورة نظريته للغرب والظاهرة الاستعمارية عموما، والظاهرة الاستشراقية بشكل خاص.
- لقد كانت المقاربة المعرفية التي تبناها مالك بن نبي في نقده للظاهرة الاستشراقية، كتمثل معرفي للصراع الفكري الغربي مع الآخر، خالية من البعد "الجغرافي الحضاري" وثنائية "الغرب والشرق"، أو "الشمال والجنوب"، وخالية كذلك من البعد القومي، وتصويرها صراعا غربيا مع العرب، بل كان يرى الاستشراق أداة معرفية في الصراع الفكري الغربي مع الأمة الإسلامية.
- لقد حاول مالك بن نبي فهم طبيعة الاستشراق بالربط بين الاتجاه العام للمستشرقين حول الإسلام دينا وحضارة، وبين الأهداف الكبرى للحركة الاستشراقية، مع التركيز على الأثر العام لكل صنف من الاستشراق أو المستشرقين على المسار العام للأمة، وهوية أفرادها.
- لقد استبعدت مقارنة مالك بن نبي في نقده للاستشراق ثنائية الاستشراق المادح والطاعن، بل كان ينظر إلى الأثر الحضاري والمعرفي والنفسي للخطاب الاستشراقي، فالمادح والطاعن سواء مادام أثرهما سلبيًا، بل الاستشراق المادح يكون، في بعض الأحيان، أسوأ وأقوى أثرا.

مراجع البحث:

- بن نبي (مالك)، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، 1960 م.
- بن نبي (مالك)، الظاهرة القرآنية، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000.
- بن نبي (مالك)، القضايا الكبرى، دار الفكر : دمشق، الطبعة الأولى، 1991.
- بن نبي (مالك)، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، 1969.
- بن نبي (مالك)، مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، 2005.
- بن نبي (مالك)، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، دمشق، 1984.
- بن نبي (مالك)، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986.
- روبنسون (دوغلاس)، الترجمة والإمبراطورية، تر: ثائر ديب، دار الفرق، دمشق، ط1، 2009.
- لومبا (آنيا)، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2007.